مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تصدر نصف سنوياً

رؤى فلسفية في ماهية الانتماء والهوية

Philosophical views on the significance of belonging and identity

أ. د/ أشرف حافظ

عضو هيئة تدريس – كلية الآداب / قسم الفلسفة _ جامعة طبرق

ashraf_hafez26@yahoo.com

العدد: الثاني عشر

يناير 2023 م

الملخص:

إن قضية الانتماء والهوية تتصف بالطابع الشمولي لارتباطها الوثيق بالوجود الإنساني، حيث يُعد هذا الموضوع جوهر استجابات المجتمعات للتحديات التي تقابلها عبر تاريخها في جميع المجالات الحياتية، الاجتماعية والنفسية والثقافية الفكرية والمادية البيولوجية السياسية والاقتصادية.

ويرجع اختلاف الرؤى في هذا الصدد لتداخل الدلالات وارتباط المجالات الإنسانية بعضها ببعض من جانب، واختلاف التكوينات الاجتماعية والمسارات التاريخية والثقافية المُكَوِنة لكل مجتمع وأثرها في تشكيله بشكل يميزه عن المجتمعات الأخرى من جانب آخر، لذلك طُرِحت تساؤلات تضمنت مفهوم الانتماء والهوية، ما المدلول اللغوي؟، هل هناك دلالات مختلفة في جوهرها للانتماء والهوية؟، هل يُعد الانتماء والولاء مفهوماً واحداً؟ أم أن أحدهما مستغرقاً للآخر؟، ما طبيعة الصلة بين الانتماء والهوية؟، هل يمكن صياغة تلك الصلة في ضوء ثوابت العلاقات المنطقية؟، هل تُعد مصادر الانتماء والهوية مكتسبة أم وراثية طبْعية؟.

يمكن الإجابة على تلك التساؤلات من خلال عرض وتحليل الرؤى الفلسفية لماهية الانتماء والهوية في ضوء العناصر الآتية: مفهوم الانتماء والولاء، المدلول اللغوي، المفهوم الاجتماعي النفسي، المدلول المكاني، المنظور التجريدي، ومضمون الهوية ودلالتها الاجتماعية والنفسية والثقافية، وصلة الانتماء بالهوية، ومصادر تشكيل كل منهما، وجدلية البيئة الاكتسابية والغريزية، وذلك بمنهج تحليلي تاريخي نقدي.

كلمات مفتاحية

الانتماء – الولاء – الهوية – الماهية – الاكتساب – الطبع – الوراثة

Summary

The issue of belonging and identity is characterized by the holistic nature of its close connection with human existence, as this topic is the essence of societies' responses to the challenges they have faced throughout their history in all areas of life, social, psychological, cultural, intellectual, material, biological, political and economic.

The different visions in this regard are due to the overlapping of connotations and the interrelationship of human fields with each other on the one hand, and the different social formations and historical and cultural paths that make up each society and their impact on shaping it in a way that distinguishes it from other societies on the other hand. Therefore, questions were raised that

included the concept of belonging and identity, what is the linguistic significance?, Are there intrinsically different connotations of affiliation and identity? Is affiliation and loyalty one concept? Or is one absorbed by the other? What is the nature of the link between affiliation and identity? Can this connection be formulated in light of the constants of logical relations? Are the sources of affiliation and identity considered acquired or natural genetics?

These questions can be answered by presenting and analyzing philosophical visions of what affiliation and identity are in the light of the following elements: the concept of affiliation and loyalty, linguistic significance, socio-psychological concept, spatial significance, abstract perspective, identity content and its social, psychological and cultural significance, the link of affiliation to identity, and the sources of formation of each Both of them, and the dialectic of the acquisition and instinctive environment, using a historical-critical analytical method.

المقدمة:

تتصف قضية الانتماء والهوية والصلة بينهما بطابع شمولي لارتباطها الوثيق بالوجود الإنساني، وأيضاً لتواجدها في المجتمعات البشرية دون استثناء، ولا يمكن تصور مجتمع دون هويته وانتماءاته، حيث يُعد هذا الموضوع جوهر استجابات المجتمعات للتحديات التي تقابلها عبر تاريخها في جميع المجالات الحياتية، السياسية والاقتصادية والثقافية الفكرية والاجتماعية والنفسية والمادية البيولوجية.

ويرجع اختلاف الرؤى في هذا الصدد لتداخل الدلالات وارتباط المجالات الإنسانية بعضها ببعض من جانب، واختلاف التكوينات الاجتماعية والمسارات التاريخية والثقافية المُكَوِنة لكل مجتمع وأثرها في تشكيله بشكل يميزه عن المجتمعات الأخرى من جانب آخر، كالتكوينات الجهوية الإقليمية والعشائرية والقبائلية والطائفية والمذهبية والعرقية.

لذلك طُرِحت تساؤلات تضمنت مفهوم الانتماء والهوية، ما المدلول اللغوي؟، هل هناك دلالات مختلفة في جوهرها للانتماء والهوية؟، هل يُعد الانتماء والولاء مفهوماً واحداً؟ أم أن أحدهما مستغرقاً للآخر؟، ما طبيعة الصلة بين الانتماء والهوية؟، هل يمكن صياغة تلك الصلة في ضوء ثوابت العلاقات المنطقية؟، هل تُعد مصادر الانتماء والهوية مكتسبة أم وراثية طبْعية؟.

يمكن الإجابة على تلك التساؤلات من خلال عرض وتحليل الرؤى الفلسفية لماهية الانتماء والهوية في ضوء العناصر الآتية:

مفهوم الانتماء والولاء، المدلول اللغوي، المفهوم الاجتماعي النفسي، المدلول المكاني، المنظور التجريدي، ومضمون الهوية ودلالتها الاجتماعية والنفسية والثقافية، وصلة الانتماء بالهوية، ومصادر تشكيل كل منهما، وجدلية البيئة الاكتسابية والغريزية، وذلك بمنهج تحليلي تاريخي نقدي.

أولاً: الانتماء والولاء

تعددت الآراء بصدد مفاهيم الانتماء والولاء والهوية، على الرغم من أنها تدور في فلك المضامين نفسها، فمنها المنظور اللغوي، وآخر اجتماعي نفسي مرتبطاً بالمدلول المكاني، والبعض قد نظر إليهم من خلال التصورات والمفاهيم والغايات والأهداف المرتبطة بالدلالات، ومنها المنظور البيولوجي الذي يحاول تحديد مصادر أو أسس تلك المفاهيم، هل فطرية أم بيئية اكتسابية؟

1- المدلول اللغوي:

1. أصل الانتماء في اللغة العربية هو "نمى الشيء ويقال نميته إلى أبيه، أي نسبته وانتمى إليه، أي انتسب"[(1)]، كما تحمل اللفظة المدلول نفسه في اللغة الإنجليزية Affiliation، فيركز التعريف اللغوي على أن الانتماء هو الانتساب إلى فرد أو مجموعة معينة، يشتمل على مقومات النمو والعرق، حيث أن الانتساب إلى الأب أو الجد هو الارتفاع إلى مستوى النسب إليه، وهذا ما جعل مفهوم الانتماء مرتبطاً بالعضوية المادية العرقية، كالانتماء إلى الأسرة والعائلة والقبيلة بالنسبة للمجتمعات القبائلية.

وجدير بالذكر أن التعريف اللغوي للانتماء يحمل خاصيتين: الأولى ضرورة أن يكون الفرد جزءاً من جماعة الانتماء، والثانية: أن الانتماء يأتي من خلال إمداد الفرد بمقومات النمو والعيش مع جماعة ينتمي إليها بالضرورة، ويتبع هذا المفهوم دلالة المنظور الاجتماعي النفسي كناتج لاتساع دائرة التأثير والتأثر والتفاعل التبادلي بين الفرد والجماعة.

وتفرق المعاجم العربية في المعنى بين كلمتي "الولاء" و"الانتماء"، رغم أن البعض يستخدمها أحياناً كمترادفين، فإن كان الانتماء في اللغة يعني الانتساب العرقي، فإن لفظ الولاء يعنى "القرب والدنو والموالاة والنصرة"[(2)].

1. والاستعمال العام لهذا اللفظ "الولاء" يعني: "الروابط والعواطف الروحية والمشاعر التي تربط الفرد بالجماعة"[(3)]، ويشير التيار الفاصل بين مفهومي الانتماء والولاء إلى أن "الولاء يتضمن الانتماء أو الشعور بالانتماء، فالمرء لا يحب موضوعاً ما ويعمل على نصرته دون أن يشعر بأن هناك ما

يربطه به، أما الانتماء لا يتطلب بالضرورة الولاء، فهناك من ينتمي إلى بلد أو دولة وينتسب إليها ولكنه لا يشعر بالحب المتوقع نحوها، وإذا شعر بحب لها فقد يحجم عن التضحية من أجل نصرتها، لذا فإن الانتماء يوحي بالانتساب"[4].

يشير هذا التيار إلى الفروق بين مفهوم الانتماء ومفهوم الولاء، وتتضمن اتجاهات كل منهما، فالانتماء يختص بالجماعات الإنسانية وأهم مظهر في ذلك هو الوطن، أما الولاء فإنه يتعدى هذا إلى الأفكار والمعتقدات، ومعنى هذا أن الانتماء يختص بالمكان والمجموعات البشرية أي أن موضوعه مادي محسوس، أما الولاء فيختص بالمشاعر المتجهة نحو الأفكار المجردة، لذا لا يشترط في الولاء لجماعة أن يكون الفرد جزءاً منها، ولكن الشرط الأساس أن يكون الفرد جزءاً من المجموعة التي ينتمى إليها.

ولكن عند تحليل دلالتي اللفظين نجد عاملاً مشتركاً بينهما وهو الشعور بالحب والنصرة، وإن كان ذات مستوى أعلى بكثير في مفهوم الولاء عن مفهوم الانتماء الذي يظهر فيه الموضوع المادي، لذا يستخدم كثير من المفكرين لفظ الانتماء لشموله على الجانبين المادي والمشاعري، ولا يمنع ذلك من استخدام لفظ الولاء وتفرقته عن الانتماء تبعاً لسياق النص ومدلوله والهدف منه.

2- المفهوم الاجتماعي النفسي:

يتناول هذا المنظور مفهوم الانتماء من الجانب الاجتماعي النفسي سواء أكان الانتماء حاجة من الحاجات الأساسية للإنسان أم دافعاً من الدوافع والميول الاجتماعية، باعتبار أن الفرد في الجماعة يستطيع أن يحقق إمكاناته، حيث يكتسب خبراته وتتشكل هويته من خلالها، فالعلاقة بين الفرد والجماعة تتصف بالاتصال والتواصل والاستمرارية، والانتماء يعبر عن هذه العلاقة التي تجمع الفرد بأفراد المجموعة، وتجعله فرداً منها، يتأثر من خلالها بالعادات والتقاليد والقيم والمعايير والسلوك الاجتماعي وأنماط التفكير.

إن العلاقة بين الفرد والجماعة تتصف بالتبادلية، تعمل من خلال جدلية التأثير والتأثر، مما يجعل الفرد مستفيداً من انتمائه للجماعة، وهذه الاستفادة متبلورة في تحقيق الرغبات الشخصية والاجتماعية التي يعجز عن تحقيقها بمفرده، وأيضاً الشعور بالانتمائية إلى جماعة تتقبله فيشعر بالأمن والطمأنينة لتحقيق حاجاته الحياتية والاجتماعية كالمركز والمكانة، وكذلك يتمكن الفرد عن طريق الجماعة من اكتساب الميراث الثقافي الذي يمكنه من التفاعل إيجاباً مع أفراد المجتمع، لأن القوى الضابطة في المجتمع لديها قدرة السيطرة على سلوك أفراده، تبعاً للمعايير الثقافية والقيم الاجتماعية الضرورية كثبات المجتمع وحفظ هويته وكيانه.

وهذا هو مضمون تعريف الانتماء بأنه "اتجاه يستشعر الفرد من خلاله توحده بالجماعة، ويكون جزءاً مقبولاً منها ويستحوذ على مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي"[5]، فالجماعة تصقل من شخصية الفرد الذي ينتمي

إليها، والإنسان بطبعه يسعى دائماً للانتماء إلى جماعة لأنه كائن اجتماعي بالطبع والجبلة، ولا يستطيع العيش بمعزل عنها، وهو يلتمس فيها إشباع حاجاته كنتيجة تفاعله مع الآخرين في المجتمع بمستوياته المختلفة، وذلك ما ذهب إليه سيجموند فرويد في قوله: "إن الجماعة التي ينتمي إليها الفرد قد تغير مشاعره وأفعاله تغييراً بعيد المدى، فالأنانية الفردية تقل على أثر تكوين الجماعة المنتمي إليها الفرد"(6).

فالانتماء وفق المفهوم الاجتماعي النفسي يشير إلى النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين بما يقضيه من التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار ونصرته في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية، كما يشير إلى حاجة الفرد للارتباط الوثيق بجماعة ما مع تفضيلها أكثر من غيرها من الجماعات والشعور بالمسئولية تجاهها.

3- المدلول المكاني:

يستتبع بالضرورة المفهوم الاجتماعي للانتماء المدلول المكاني، وهو ما يعني الانتماء للوطن، فحاجة الإنسان إلى الارتباط بالآخرين وتوحده معهم ليحظى بالقبول وإرضاء "الأنا" يتمثل في ارتباط الفرد بوطنه الذي يحيا فيه، والوطن يتكون من مكان ومجتمع، يرتبط الفرد عادة بالمكان الذي نشأ فيه هو وأسرته وبالتالي المجتمع الذي يعيش معه الفرد في المكان نفسه، فتكون فكرة الوطن عبارة كيان أكبر وأشمل يتجه إليه الشعور بالانتماء إليه.

والحاجة إلى الانتماء لكيان شمولي يرجع إلى حاجة الفرد للشعور بكيان يستمد منه الشعور بالقوة ومعنى وجوده وعالمه، ومعنى وعيه وعلاقته بمجتمعه من خلال النظم الاجتماعية المتضمنة فيه (الأسرية، الاقتصادية، السياسية، التربوية)، لاشتراك أفراد المجتمع في القيم والعادات والتقاليد وأساليب الحياة.

ومعنى هذا أن هناك تطوراً للوعي بالانتماء من بيئة الأسرة إلى البيئة المحلية التي تعني المجتمع المحلي الملاصق للأسرة التي ينشأ فيها الفرد، ويتمثل في القرية أو الشارع أو الحيّ والمؤسسة التعليمية، وبالتالي يتطور الوعيّ بالانتماء إلى مجتمع الوطن، "حيث لا وجود لفاصل بين المجتمع المحلي وبين مجتمع الوطن باعتبار أن الصلة بينهما صلة الجزء بالكل"(7).

فالوطن هو المكان الذي يجمع أفراد المجتمع بوحدة الماضي المتمثل في العادات والتقاليد والتراث واللغة، والحاضر المتمثل في السياسة والاقتصاد والثقافة والعلاقات الاجتماعية، والمستقبل الذي يتطلع إليه الفرد والمجتمع ككل، وبذلك هو "عبارة عن تجمع من الصور الذهنية والأحاسيس الوجدانية التي تبلورت في ذهن الفرد، فليس الوطن هذا الشيء أو ذاك من الأشياء والمخلوقات والناس كما هي في الواقع الموضوعي

المتجسد في مكان محدد، بل هو الصورة الذهنية المستشفة من الواقع الموضوعي من جهة، والمصطبغة بالصبغة الذاتية للمرء من جهة أخرى"[8].

وجدير بالذكر أن الإنسان عندما يقوم بمخاطبة وطنه كما لو أنه شخص متجسد أمامه، لا يكون قد خرج من نطاق السوية، بل يكون قائما بعملية نفسية هي عملية الإسقاط، أي يسقط طبيعته الإنسانية على طبيعة الوطن المكانية والمعنوية، ذلك لأن الوطن بالنسبة للمواطن هو الكل الشامل الذي ينتمي إليه فيعتز به ولا يستطيع الابتعاد عنه حتى وإن اغترب مكانياً فهو في وجدانه ومخيلته وعقله كشخصية متجسدة ملازمة له.

وبهذا فالوطن الذي يخاطبه المرء "هو مركب ذهني ينشأ نتيجة تفاعل الخبرات المستفادة من خارج الذات الشخصية مع المقومات الذهنية والمشاعر الوجدانية الذاتية التي يقدمها المرء إلى تلك المقومات الموضوعية"[9]، وهذا المركب النفسي الموضوعي يوجه المرء إليه مشاعر الانتماء والثقة، والتمسك بقيمه وثقافته وصوره المكانية الزمانية المتمثلة في ذكريات الماضي ووجود الحاضر وتطلعات المستقبل.

ومما سبق يمكن القول أن الانتماء للوطن يجمع مستويات عدة، منها الانتماء المادي الذي يقصد به كون الفرد عضواً فعلياً – كمواطن – في المجتمع القائم في مكان محدد (حدود الدولة)، ومستوى الانتماء للأنا، والذي يعني هدف الانتماء المتبلور في الحصول على الإشباع من تحقيق وإرضاء الذات، وأيضاً مستوى الانتماء الإيثاري، وهو الذي يظهر من خلال مواقف فعلية، وهي التي تتطلب التضحية والإيثار من أجل المجتمع والنفع العام، لذا يعد الانتماء للوطن انتماءً دائماً بصرف النظر عن مستوى قوته.

4- المنظور التجريدي:

ينصب المنظور التجريدي على اتجاه الانتماء نحو المفاهيم والتصورات، مثل: الانتماء إلى أيديولوجية (نسق فكري) محددة، أو عقيدة دينية، أو مذهب عقائدي، أو مجموعة من المبادئ الفكرية الإنسانية كالمساواة والعدل والحق والخير، أو مفهوم مجرد له جانب مادي اجتماعي، كالوطن فهو ليس قطعة الأرض المحددة، بل هو مفهوم أو تصور مجرد بما يحتويه من تصورات وقيم ومبادئ وعادات وتقاليد وأعراف.

والإنسان كلما صار أكثر رقياً وتحضراً، صار أكثر قدرة على التعامل مع التصورات والمفاهيم المجردة، وبالتالي فإن انتماءاته لا تقتصر على الأشياء أو الجماعات البشرية، بل تتخطى المحسوسات لتكون للمعقولات الكلية، "فالبدائي يشعر بالانتماء إلى مجموعة محددة من الناس دون سواها، أو إلى شخص رئيس القبيلة أو شخص الملك أو رئيس الدولة، بصرف النظر عن ما تحتويه هذه المراكز من مفاهيم اعتبارية، أما الشخص المتحضر فيشعر بالانتماء إلى ما تعنيه وما تقدمه تلك المراكز إلى المجتمع"[10].

وجدير بالذكر التفرقة بين الوسيلة والهدف أو الغاية على الأخص في الصلة بين الانتماء والتصورات المجردة، فالمفاهيم والتصورات إن كانت وسيلة لغاية أخرى فلا يُعد التحزب إليها أو الميل لها انتماءاً، أما إن كانت غاية في حد ذاتها فالاعتقاد بها يُعد انتماءاً، ذلك لأن الفرد إن اعتنقها وأصبحت جزءاً من هويته فإن انتمائه إليها يصبح توحداً، أما إن كانت وسيلة لهدف آخر فمن الطبيعي أن يستغنى عنها إن وجد وسيلة أخرى لتحقيق الهدف نفسه.

ويمكن عرض بعض النماذج بهذا الصدد، والتي ظهر لديها الانتماء بشكل كبير للمفاهيم والتصورات العقلية، حيث كانت هذه التصورات هدفاً في حد ذاتها، وبسبب هذا الانتماء عانت الكثير لأجله، والمجال الفلسفي عبر التاريخ أكثر المجالات التي ظهر فيها الانتماء للتصورات والأفكار، ففي الفكر اليوناني القديم تمثل المنظور التجريدي للانتماء عند سقراط (399 ق.م) وأفلاطون (347 ق.م) وأرسطو (322 ق.م)، "لقد كان انتماء سقراط لفلسفته التي ترتكز على السعي وراء الحقيقة والعدالة ومعرفة وتطوير الذات الإنسانية، الأمر الذي أكثر من أعدائه الذين استخدموا العديد من الوسائل للضغط عليه لسحب معظم آرائه، ولكنه لم يقبل، مما أدى إلى الحكم عليه بالموت، وعلى الرغم من إمكانية الهرب التي كانت لديه، إلا أنه رفض حتى لا يتنافى في تصوره عن فكرة العقد الاجتماعي الذي يقام على أساسه مفهوم الدولة"[11].

وكذلك أفلاطون الذي تبلورت فلسفته المثالية وتصوراته حول "الوصول للحقيقة المتمثلة في الوجود المتعالي المتجاوز نطاق التجربة الحسية، حيث تمسك بمذهبه طيلة حياته، وذهب يدافع عن تصوراته الفكرية، وهذا يعبر عن شدة انتمائه إليها، وأيضاً أرسطو الذي لم يتنازل عن أفكاره وآرائه السياسية والاقتصادية والكونية والميتافيزيقية تحت ضغط أعداء المقدونيين بعد وفاة الإسكندر الأكبر (323 ق.م)"[12].

ولم يقل انتماء هيباتيا (415م) للتصورات الفكرية المجردة عن سابقيها، فلقد تأثرت بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وبرعت في الرياضيات وعلم الفلك، "ولكن تلك الأفكار كانت سبباً في عداء رجال الكنيسة لها في الأسكندرية، وحاولوا بشتى الوسائل تغيير انتماءاتها الفكرية والخضوع لآرائهم، ولكنها رفضت وجعلت جل انتمائها لآرائها، الأمر الذي جعلهم يتهمونها ظلماً بممارسة السحر، فقتلوها في شوارع الأسكندرية، ونكلوا بها، فذهبت ضحية إرهاب الفكر الديني بسبب انتمائها الفلسفي"[13].

ولم تكن ظاهرة الانتماء نحو التصورات المجردة لدى فلاسفة الإغريق وحدهم، بل كانت لدى الفكر الأوروبي والإسلامي كذلك، ويُعد جون اسكوت أريجين (877م) مثالاً للدلالة الانتمائية في مجال التصورات العقلية، "فلقد تأثر بالمعارف اليونانية واللاتينية السابقة عليه، وانتمى إلى التيار العقلي كوسيلة للمفاهيم الدينية، ولم تكن أفكاره مألوفة في ذلك الوقت بالنسبة للكنيسة، فحُرِمَت آرائه، ولكن انتمائه لفلسفته جعله يُكْمِل مؤلفاته التي حاول فيها الدفاع عن مذهبه وتصوراته رداً على تحريم الكنيسة لأفكاره"[14].

وأيضاً روجر بيكون (1294م) الذي ساهم في النزعة العلمية بإنجلترا، والتي عنيت بتطور العلوم الطبيعية بداية من أفكار أرسطو الطبيعية إلى آراء ابن سينا والحسن بن الهيثم وابن رشد، فحدثت نهضة علمية عقلية، ولكن "روجر بيكون كان يؤمن بأن التنجيم علماً من العلوم وأدخله في عداد العلوم التجريبية، فاتهمته الكنيسة بإدخال السحر في العلوم، والبعض يرى أن هذا الاتهام كان ظاهرياً، أما الأساس فهو تأثره وانتمائه لآراء فلاسفة الإسلام"[15].

كذلك في الفكر الإسلامي، لقد كان انتماء شهاب الدين السهروردي (588هـ) لفلسفته "التي تعبر عن التصورات الغنوصية الإشراقية للكون سبباً لمقتله"[16]، حيث تمسك بتلك التصورات في حد ذاتها، ولم يكن انتمائه الأكبر للشخوص السلطوية، كما لم تكن تلك الفلسفة وسيلة لغاية أخرى، بل كانت هدفاً معرفياً للحقيقة بالنسبة إليه.

وفي هذا الصدد نجد ابن رشد (595هـ) الذي عاش مأساة بسبب انتمائه لأيديولوجية "التوفيق بين الفلسفة والدين، فلقد تم حرق كتبه أمامه، وعلى الرغم من ذلك لم يتخل عن هذه التصورات والمفاهيم العقلية، فذهب يدافع عن تلك التصورات التي تربط بين الدلالات الكونية والإنسان واعتقاداته"[17].

ولكن لا يعني ذلك أن المعاناة مقترنة بالضرورة مع مشاعر الانتماء، ولكن الأمثلة السابقة تظهر مدى نسبة الانتماء للتصورات والمفاهيم، وهناك أمثلة أخرى ظهرت فيها الانتماءات بصرف النظر عن المعاناة لإثباتها، ففي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ظهرت التصورات والمفاهيم التنويرية المتمثلة في انتماءات مونتسكيو (1755م) وفولتير (1778م) وروسو (1778م) وديدرو (1784م) ولسينج (1781م) ومندلسون (1786م) وكانط (1778م)، وجوهر تلك التصورات يتبلور في "الانتماء لفكرة الحرية من خلال مفهوم القانون الطبيعي، وأيضاً فكرة العقل وهو القدر المشترك بين كل البشر، وكذلك فكرة النقد حيث أن غياب النهج النقدي يعني غياب الحضور الإنساني الفعال، وفكرة التسامح التي تُنْتج تقبل الآراء المختلفة، وهكذا تتطور البشرية (في تصور التنويريين) في وعيها ونظمها وثقافتها لترتقي إلى مرحلة الحضارة"[18].

وفي مجال أيديولوجيات الفكر الاقتصادي السياسي تتجه الانتماءات إلى نوعين من تلك الأيديولوجيات، منها: الفكر الاشتراكي الشيوعي، والآخر الرأسمالي، وبالنسبة للفكر الاشتراكي الشيوعي فهو "مجموعة من الأفكار والتصورات المبنية على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج في الاقتصاد، وتحتوي على مرحلتين، الأولى: الاشتراكية، والثانية: الشيوعية، ففي حال نجاح المجتمع في تحقيق الاشتراكية ينتقل إلى الشيوعية، وهي مرحلة المغالاة في الاشتراكية"[19].

جدير بالذكر أن فكرة الاشتراكية قد تطورت عبر العصور إلى أن وصلت مرحلة الاكتمال النظري في القرن التاسع عشر الميلادي، حيث صور أفلاطون (347 ق.م) في كتابه الجمهورية نظاماً ظنه مثالياً للمجتمع

أشار فيه إلى الأسس والمبادئ الاشتراكية بين الطبقات في المجتمع، إلا أنه عدل عن هذا النظام في كتابه القوانين الذي كتبه في أواخر حياته بسبب ملاحظة "استحالة إقامة دولة تكون فيها الأموال على الشيوع، فحاول أن يخفف من ذلك عن طريق تعميق فكرة التخصيص بدلاً من المشاع"[20].

أثرت تلك الأفكار في تشكيل النظام الاشتراكي اللاحق على أفلاطون في العصر الحديث، حيث تأثر جان جاك روسو (1778م) بهذه الأفكار "فنادى بالمساواة بين المواطنين عن طريق تملك الدولة وسائل الإنتاج بهدف إقامة نظام اجتماعي تحل فيه الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة، وتصبح فيه الدولة هي الوارث الوحيد للأموال الإنتاجية، بحيث لا يكون هناك سوى تنظيم واحد كبير في المجتمع"[21].

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت الماركسية التي تُنْسب إلى كارل ماركس (1883م) وصديقه إنجلز (1895م) كتعبير عن الاشتراكية، حيث استخلص ماركس من دراسته للقوانين التاريخية التي تحكم سير النظام الاقتصادي الاجتماعي، "إمكان ظهور النظام الاشتراكي الذي يعقبه النظام الشيوعي كمرحلة نهائية والذي تتغير فيه علاقات الإنتاج في المجتمع، فتحل فيه الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة، وبتغير علاقات الإنتاج ومن ثم أسلوب الإنتاج في المجتمع تتغير كافة مظاهر الحياة الاجتماعية والهيكل العلوي للدولة"[22].

أثرت تلك الأفكار في انتماءات الكثير من المجموعات البشرية، وعلى رأسهم فلاديمير لينين (1924م) الذي قاد الثورة البلشيفية عام 1917م،" وتَكَون أيضاً الحزب الترتسكي نسبة إلى ليون تروتسكي (ت 1940م)، حيث يحظى أعضاء الحزب بنوع من النشاط والشعبية نتيجة ولائهم لأفكار تروتسكي، وأُطلق عليهم اسم (التروتسكيون)، وتشعبت هذه الانتماءات في دول كثيرة خاصة أمريكا اللاتينية التي تأسست فيها منظمة تضم الأحزاب التروتسكية في العالم كله، كما حظيت المادية إحدى فصائل الشيوعية نسبة إلى ماوتسي تونج (ت 1976م) انتماءات كبيرة في كمبوديا وكوريا الشمالية وألبانيا وحتى أمريكا (منظمة الفهود السود)، وفي الهند تأسس الحزب الشيوعي الهندي عام 1964م"[23].

وعلى الرغم من التوسع الانتمائي للأفكار والتصورات (الاشتراكية – الشيوعية)، إلا أن هذا التوسع أخذ في التقلص نهاية القرن العشرين، وذلك لعدة أسباب منها، أولاً: تقييد الملكية الخاصة في أضيق الحدود تبعاً لنظرة المجتمع للفكر الاشتراكي – الشيوعي، وبالتالي إهمال الطبيعة البشرية من غريزة الملكية الخاصة، وهذه الغريزة تعد حقاً طبيعياً للإنسان باعتبارها المصدر الباعث على النشاط الاقتصادي وأيضاً الإبداعي التطوري. ثانياً: إن غريزة الملكية الخاصة من ضمن مقولات القانون الطبيعي الذي يعني "أن هناك قانوناً غير مكتوب لم يضعه الإنسان، خُلِقَت التصورات والمسلمات البدهية بناء عليه"[24]، وكذلك الغرائز والكون بأسره، يتضمن هذا القانون مقولات مجردة عقلية، كالعدل المطلق والحق والخير، والمسلمات التي جُبِلَ عليها العقل البشرى،

والتي لا تقبل حكم الصواب والخطأ في ذاتها، لأنها قيم مطلقة، وأية أفكار أو تصورات ضد القانون الطبيعي فهي تحمل عوامل فنائها معها، والاشتراكية أو الشيوعية بتقيدها الملكية الخاصة قد أتت بخلاف مقولات القانون الطبيعي.

ثالثاً: إن كانت فكرة الاشتراكية قد حاربت دكتاتورية الفرد عن طريق تقييد الملكية الخاصة، فإنها قد أحلت مكانها دكتاتورية البروليتاريا للسلطة، مما نتج عنه دكتاتورية الدولة ووحشيتها، وقضائها على الحريات، وسلب الملكية الخاصة دون وجه حق، وانتقال الثروة المسلوبة من يد أفراد "ملاكها" إلى يد أفراد "أصحاب السلطة".

ثانياً: الهوية

يتصل موضوع الانتماء اتصالاً وثيقاً بموضوع الهوية، ذلك لأنه لا يمكن تصور الانتماء والولاء دون هوية تُحَمَل عليها المشاعر الانتمائية، فالهوية هي التي تستغرق تلك الأفكار والتصورات والأحاسيس المرتبطة بالانتماء والولاء.

ولاشك أن هناك جدلاً كبيراً بصدد مفهوم الهوية، لوجود متغيرات كثيرة مؤثرة في المفهوم والدلالة الخاصة بها، والتي تؤثر بالتبعية على محمولاتها كالانتماء والولاء، وذلك من خلال مجالات عدة: ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وهذا ما جعل الجدل مستمراً في مجالات العلوم الإنسانية، كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وعلم اللغة وعلم الاقتصاد والسياسة، وإن لم يخل الأمر من تواصل العلوم الطبيعية بالإنسانية كالفرينولوجى والبيوسيكولوجى، لذا أتت الدلالات متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى تبعاً لآراء المفكرين، كل حسب منظوره وإطار دراسته.

يتضح معنى الانتماء والولاء في الدلالة النفسية والاجتماعية للهوية أكثر من الدلالة الوجودية التي تختص بوجود الشيء في ذاته الحامل للانتماء من منظور المشاعر، فلقد أخذ الإنسان يقترب من موجوديته ومن تكويناته وذاته بظهور علم النفس كعلم مستقل، حيث وجهت أبحاث ودراسات سيجموند فرويد الأنظار إلى هوية الموجود الفرد، الذات المشخصة، من خلال استكشاف العناصر الكامنة وراء الشعور والوعي لدى الإنسان، وهذه العناصر مكونة من التصورات والأفكار والمشاعر والأحاسيس وقوى أخرى للنفس البشرية، وافتراض مقولة اللاشعور واللاوعي كقوة عند الإنسان تتحكم في السلوكيات البشرية، كل هذا أدخل منظوراً جديداً على مفهوم الهوية كحامل للانتماء والولاء.

ويُقصد بدلالة هوية الأنا في المجال النفسي (علم النفس) الأنا الفردية الشخصية للفرد، ومن ذلك المنطلق يكمن مفهوم هوية الأنا في تحديد الفرد لمن يكونه وما سيكونه، إلى ماذا ينتمي؟ وإلى أي اتجاه يكون ولائه؟،

بحيث يكون المستقبل المتوقع امتداداً واستمراراً لخبرات الماضي، أو تكون خبرات الماضي متصلة بما يتوقعه من مستقبل اتصالاً ذا معنى، "وينطوي مفهوم الهوية على شعور الفرد بكونه قادر على العمل كشخص منفرد دون انغلاق العلاقة بالآخر، أي تحقيق تفرده وتقوية أدواره الاجتماعية وإعادة تقويمه للانتماء والولاء، أي لعلاقاته بعالمه والآخرين وتوجهه نحو أهداف محددة"[25].

وجدير بالذكر أنه لا يوجد اتفاق بين علماء النفس على كيفية ارتباط مفهومي الأنا والذات، فالبعض قد استخدمهما بالتبادل من حيث هوية المعنى، باعتبار أن مصطلح الذات مرادف لمصطلح الأنا ويؤدي إلى المعنى نفسه، والبعض الآخر قد فرق بينهما، فبالنسبة للأنا، نظر إليها فرويد على أنها "جزء من الشخصية، وتمثل ذلك الجزء أو القسم من الهو الذي تأثر نتيجة العالم الخارجي فيه تأثيراً مباشراً بواسطة جهاز الإدراك الحسي"[26]، أما بالنسبة للذات "فتعبر عن الكيان الجوهري أو الخاص الجزئي لشخص واحد، وقد تُستخدم كمرادف للشخصية"[27]، ويرى روجرز أن مفهوم الذات يمكن تصوره "كتنظيم منسق يتألف من الإدراكات أو مميزات "أنا" والإدراكات، فالذات هي جانب من العلم الظاهر للفرد أو من مجاله الإدراكي"[28].

وشيوع لفظ هوية في المستوى النفسي إنما يرجع إلى إريك إريكسون بوصفه هوية أو ذاتية الفرد بحيث يكون للمرء باستمرار كيان متميز عن الآخرين، "حيث طور هذا المفهوم وجعله مفهوماً مركزياً في تصوراته النفسية، وعرفه بأنه ذلك الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات المرء كشيء له استمراريته، وكونه هو نفس الشيء ثم التصرف تبعاً لذلك"[29].

كما ويشير إلى مفاهيم قُدر لها أن تدخل في نطاق المستوى الاجتماعي والثقافي لهوية المجتمع وهي: "الهوية الإيجابية والهوية السلبية وأزمة الهوية"[30]، والمفهوم الذي وضعه إريكسون للهوية قد لعب دوراً مهماً في الدلالة الثقافية والاجتماعية للهوية في المستوى الاجتماعي باعتبار أن المجتمع مُكَون من مجموع الأفراد، أو بمعنى آخر هوية المجتمع تتكون من مجموع هويات الأفراد المكونين لها والمستغرقين فيها، باعتبار استحالة الفصل بين النمو الشخصي والتغيرات المجتمعية.

أما جان بياجيه وهو عالم نفسي سريري على دراية واسعة بفلسفة المعرفة والمنطق، "لقد أضاف أبعاداً جديدة في الدلالة السيكولوجية للهوية وبالتالي الانتماء، من منطلق تصوره عن قصور النظرية ذات البعد الواحد، فهو يؤمن بالنظام العالمي"[31]، ويرى الوحدة الواحدة في كل الأشياء المختلفة، بيولوجية، اجتماعية، نفسية وفكرية، في النظم الحية وغير الحية، باعتبار أن الكل يؤثر ويتأثر بالكل من خلال الاتصال والتشابك، ويرى "أن الفعل التلقائي والتغيير الديناميكي الكامن يدعمان النمو التطوري المُكَوِن للهوية والمؤدي إلى حالات الانتماء والولاء، وأيضاً إلى لكل تركيب بنائي بحركات في اتجاه مزيد من الحركة البسيطة والتعقيد والمطاوعة وزيادة توحيد لكل أفعال الأجزاء المختصة، وتميل الأخيرة لجذب الكل نحو حالة التوازن"[32]، والهدف النهائي

من عملية التطور هو المستوى الثالث للتوازن "وهو الذي يتم فقط في حالة أكثر التركيبات البنائية تطوراً، أي في الوقت الذي يقترب فيه المرء من اكتمال الهوية"[33].

ولا يهمل بياجيه دور البيئة الطبيعية والاجتماعية والفكرية في عمليات التكيف النفسي للفرد، فهو متأثر بنظرية دوركايم القائلة بأن "كل الحقائق الاجتماعية – قيماً وعملياً – إنما يصنعها الإنسان، إن العالم الاجتماعي والفكري لا يمثل أي هوية بدون الإنسان، ومثل هذا العالم هو انعكاس للتنشئة الاجتماعية التي يمر بها كل فرد في نموه المعرفي"[34]، فالفرد وبيئته وطبيعته يمثلون كلاً متوافقاً، إن مفهوم الإنسان للأشياء، كل الأشياء (أو الأشخاص) التي تتجه إليها الأفعال والأفكار والمشاعر أو العكس (وكذلك أفكاره) تبرز في وقت واحد مع إدراك الإنسان لنفسه، وهذه الظواهر التي هي من صنع الإنسان تصبح جزءاً من بيئة الفرد بالتبعية وتنشط عملياته التكيفية.

إن المظاهر الاجتماعية والنفسية والفكرية والبيولوجية تبدو كبيئة، وتشمل مجالاً واحداً بالنسبة لهوية الفرد، ومجال كل فرد يمكن أن يسرع أو يؤخر أو يغير نظام التتابع لعملية نمو الفرد، ويتبلور نمو الشخصية عندما يستطيع الشاب استخدام تفكيره الاستنتاجي عن موقف تتأسس له فيه القواعد والقيم، ويستطيع أن يكون افتراضاته الخاصة، فالشخصية توجد عندما تستطيع الهوية الشخصية "الذات" الخضوع والانتماء إلى نوع من نظام المجتمع، والهوية الشخصية بعد اكتمالها ونموها تستطيع معالجة الأفكار دون الاعتمادية الكلية على الآخر، وتتمثل معالجة الأفكار في التصنيف والتقييم المنطقي المتعدد الأبعاد لوجهات النظر الاجتماعية والفكرية، حيث أن تكوين وضع اجتماعي وفكري يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفهم وتحصيل القيم الأخلاقية ونضج الوعي الإدراكي من خلال محصلات الانتماءات.

ويقر بياجيه عدة اتجاهات تهيمن على عمليات نمو الهوية الشخصية وانتماءاتها، "ومنها: أن كل مظاهر النمو تعكس اتجاهاً طبيعياً للتغير من تركيب بسيط إلى تركيب متزايد في التعقيد، ومنها: أن كل مظهر من مظاهر النمو يبدأ باختيار حسية عادية وبعد السيطرة الكاملة على خبرة حسية يمكن فقط استطراد النمو نحو السيطرة على التجريد المقابل، ويستطرد نمو الشخصية من الخبرة مع العالم المادي إلى العالم الاجتماعي وأخيراً إلى العالم الفكري حيث الانتماءات إلى التصورات المجردة، وكل بُعد جديد يختبر أولاً بواقعيته المادية قبل الاجتماعية ثم يمكن الاعتبارات الفكرية أن تستوعب، ويتطور السلوك المعرفي من العمل إلى العمل المعرفي، فيعرف الشيء أولاً لفائدته، ثم لدوامه ورمزه التمثيلي وموضوعه في الفضاء المكاني (المجال) وخواصه ولنسبيته في الفضاء المكاني والزمني واستخدامه، وعند اكتمال نمو الهوية يحل محل التبعية الانتماء والولاء والالتزام بالتعاون والتبادل والأخذ والعطاء الاجتماعي وكذلك الالتزام بالتكامل الاجتماعي"[35].

أما بالنسبة للدلالة الاجتماعية الثقافية فإنها تعبر عن الإطار الفكري العام والإطار النفسي الذي يعبر عن وجوده الاجتماعي والنفسي والثقافي والعرقي، وبالتالي يمكن التحدث عن السمات العامة وأنماط التفكير والسلوكيات والأصل العرقي في ضوء مفهوم الهوية، كما وتتطرق تلك الدلالة إلى مفهومين أساسيين يرتكز عليهما مكونات بنية الهوية، وهما مفهوم القومية ومفهوم الأيديولوجيا، أما الأول فيستخدم في كثير من الأحيان أو معظمها مرادفاً لمفهوم الهوية العرقية.

وفكرة القومية أو الهوية العرقية هي من ضمن أفكار القانون الطبيعي للمجتمعات البشرية، وهي موجودة منذ القدم، تختلف صورها باختلاف العصور والمجتمعات، لأنها تعبر عن علاقات اجتماعية لمجموعة من أبناء الأمة الواحدة، وهي بهذا تتبلور في صلة اجتماعية عاطفية، تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع، وهنا يأتي مفهوم القومية في هذا المعنى كرابطة اجتماعية تربط الناس أو الجماعة بعضها مع بعض برباط الشعور بالانتماء، إلى جانب روابط أخرى روحية ومادية، ويكون بذلك مفهوم الهوية متضمناً المفهوم الثاني وهو مفهوم الأيديولوجيا، الذي يعني المنهج أو النسق الفكري المميز للهوية ذات الطابع الوحدوي، أي السمة أو الصبغة التي تتماسك بين طياتها الموضوعات المدركة على اختلافها سواء أكانت هذه الموضوعات عقائدية دينية أم سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية.

ويرتبط مفهوم القومية بمفهوم الأمة، فالأول يُعد مفهوماً اجتماعيا بماً تحكمه من روابط انتمائية روحية مشتركة وهو مفهوم اجتماعي ترابطي، بينما الثاني – الأمة – فهو مفهوم سياسي أكثر منه اجتماعي، والهوية القومية بالمفهوم السيكولوجي التاريخي تعني طرق تفكير وشعور وسلوك يتسم بالتماثل والهيمنة النسبية لمجتمع معين، وهي هوية نسبية إلى حد ما وتاريخية يحققها شعب ما عن طريق التفاعل أو علاقته الجدلية مع التاريخ.

وجدير بالذكر الإشارة هنا إلى نظرتين على قدر من الاختلاف بصدد مصادر تشكيل الانتماء وهوية العقل الجمعي، الأولى تنظر إلى الأمر من خلال عملية الجدل التاريخية للمجتمع، وترى أن انتماءات الهوية تتكون أو تُكْتَسب من جدلية تاريخه، وهي النظرة الاكتسابية الجدلية، والثانية تنظر إلى انتماءات الهوية من المنظور الطبيعي كجوهر وراثي يضيف سمة عامة ثابتة نسبياً لهوية العقل الجمعي للمجتمع.

ثالثاً: مصادر تشكيل الانتماء والهوية

1- الجدل الاكتسابي

يشير هذا التيار إلى أن الانتماء يُكتسب عن طريق قابلية الاكتساب لدى الإنسان لمشاعر الانتماء والولاء في المجالات المختلفة، فالإنسان يتميز بتفاعلات وجدانية وعقلية ولُغوية واجتماعية، وتتم عملية اكتساب الانتماء بيئياً عبر مراحل متشابكة من العمليات التفاعلية بين الإنسان والبيئة المحيطة بشقيها الطبيعية والاجتماعية، تلك البيئة هي التي تشكل الوعيّ بالانتماء.

وينفي هذا التيار الطبيعة الغريزية للحاجة إلى الانتماء والتجمع، فيرى أن هذه الحاجة "هي إحدى مميزات الجنس البشرى بسبب قيمتها المرتفعة في المجموعة، وبفضل هذه الميزة تمكن القيام بعدة وظائف لا يمكن للفرد أن يقوم بها وحده، فتحقق النمو والأمن والاستقرار، لذا ينمو الشعور بالانتماء والولاء لما يتحقق من خلاله حياة أفضل للإنسان"[36].

انطلق أصحاب مفهوم الجدل الاكتسابي من خلال منطلق الفيلسوف جون لوك (ت 1704م) الذي انتقد الرأي القائل بالأفكار الفطرية، وأرجع المعرفة بشكل عام إلى البيئة الاكتسابية، حيث رأى أن "الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء، وعن طريق البيئة وتجارب الحياة يتلقى الإنسان معارفه وميوله وانتماءاته وأفكاره، ذلك لأن العقل يتلقى إحساسات من الخارج، أي من التجربة الواقعية، وتتحول هذه الانطباعات والأحاسيس إلى أفكار في العقل، وهي التي تشكل أساس الذهن وأساس العمليات الفكرية والشعورية للفرد"[37].

أ- مؤثرات الانتماء

وهناك عوامل مؤثرة في الانتماء، وهي عوامل التنشئة الاجتماعية والتي تلعب دوراً مهماً للانتماء من منظور القابلية لاكتساب الانتماء والولاء، وتنقسم إلى عوامل البيئة الطبيعية، وعوامل البيئة الثقافية والاجتماعية، وبالنسبة للأولى فتعني عوامل البيئة الطبيعية كل ما يتصل بالفرد الإنساني ويؤثر في تنشئته سالباً أو إيجاباً، وتشمل كل الظروف التي تحيط بالفرد منذ تكوينه في البيئة الرحمية، وتتبلور في العوامل المناخية والجغرافية والصحية التي تؤثر في عملية التنشئة الانتمائية.

وتختلف درجة تأثير تلك العوامل بحسب التأثيرات التي تحدثها تلك الظروف وبمدى عمقها واستقرارها في الإنسان، وبدرجة تفاعله معها واستجابته لها، "وترتبط أيضاً بنوع الجنس وبقوة الأساليب التي تمارسها المؤسسات المختصة بالتنشئة الاجتماعية في الفرد، وتزداد تلك العوامل كلما كانت بيئة التنشئة وظروفها مناسبة لها ومرغوبة فيها من قبل القائمين عليها والمتفاعلين معها، فتلك العوامل لها أكبر الأثر في توجيهات الفرد وسلوكه وانتماءاته"[38].

أما بالنسبة لعوامل البيئة الثقافية والاجتماعية، فهي تتمثل في القيم الثقافية والحضارية التي تتفاعل مع بعضها البعض في إنتاج الهوية أو الشخصية الإنسانية التي يتميز بها الفرد عن غيره من الأفراد الآخرين،

وهي تختلف من مجتمع لآخر بحسب الظروف والعوامل التي تحدد وتميز الشخصية، كما أنها تختلف أيضاً في المجتمع الواحد إذا ما تعرض الفرد لظروف وعوامل مختلفة عن الآخرين، فيختلف نمط الشخصية باختلاف نمط الثقافة التي يتعرض لها الفرد في المحيط الاجتماعي معها، مما يتيح أحياناً وجود نمطين أو أكثر من السلوك في الفرد الواحد، يكتسي أحدهما طبيعة خاصة مميزة له، ويكتسي الآخر طبيعة عامة تتوافق مع واقع المجتمع وسلوكه العام.

وتُعد بيئة الرموز التي يتعامل الإنسان معها ضمن البيئة الثقافية الاجتماعية، مثل: العلماء والمفكرين البارزين والزعماء والأبطال، وكذلك الكتابات والنقوش التي تمكن الإنسان من الوقوف على الحاضر والماضي وعلى الأخص الأحداث التراثية للمجتمع.

ب- تباين المحصلات الانتمائية

ومن الجدير بالذكر أن أفراد المجتمع يختلفون بعضهم عن بعض في مدى تفاعلهم مع كل بيئة من هذه البيئات سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية ثقافية أم رمزية، فالمحصلة الانتمائية تختلف تبعاً لمدى الاستعداد الشخصي أو الفئوي الخبري، وأيضاً "مدى توافر المؤثرات البيئية التي تعمل على ترسيخ الانتماء لدى المرء، وكذلك استمرار التفاعل الخبري وتسلسله واتساقه"[39].

وبالنسبة للاستعداد الشخصي، فإن الأفراد لديهم فروق فئوية في مدى قابلية الاستعداد للتأثر بالبيئات المختلفة، وليست هناك قابلية ذات مستوى موحد، ولكن كلما كان استعداد الفرد أو الفئة الاجتماعية للتأثر بالبيئة المحيطة قوياً، كانت المحصلة الانتمائية بالتالي قوية، فالصلة بينهما تتصف بالطردية التناسقية.

أما المؤثرات البيئية مثل المؤسسات الاجتماعية فهي التي تكفل توافر المؤثرات المواتية للانتماء، حيث تكون ذات فاعلية مؤثرة إلى حد كبير في نفوس الأفراد، وتحملهم على الشعور بالانتماء، ذلك لأن الانتماء هو عاطفة متبلورة بشكل إيجابي حول أحد الموضوعات، والمؤسسات الاجتماعية هي التي تبلور الوجدان بصدد الشعور بالانتماء.

والسبب الثالث في تباين المحصلات الانتمائية المتضمن في استمرار التفاعل الخبري وتسلسله واتساقه، فهو بمثابة الغذاء للكائن الحي، "فلكي يتسنى للمحصلات الانتمائية أن تكون مفعمة بالمشاعر الحيوية، لابد أن يظل الفرد في حالة اكتساب خبري إيجابي من المجتمع المحيط به، لأن التوقف عن اكتساب الخبرات من المجتمع يقلل نمو مشاعر الانتماء، وحالة الاكتساب لابد أن تكون من خلال الخبرات المكتسبة المتوافقة المتصلة بعضها ببعض"[40].

ج- انتماء هوية العقل الجمعي

وكما أن للأفراد في المجتمع انتماءات متنوعة تجاه موضوع ما، أو مجموعة معينة حاملة لأفكار أو عرق موحد بآلية الجدل الاكتسابي، فإن مجموع انتماءات الأفراد تشكل انتماء هوية العقل الجمعي للمجتمع.

تشير تلك النظرة إلى أن انتماء هوية العقل الجمعي تكون مكتسبة لا يرثها المجتمع من تركيب جيني وراثي متأصل فيه، وإنما يكتسبها المجتمع نتيجة استجابات لظروف ودوافع متغيرة تطرأ على المجتمع عبر تاريخه الطويل، وعلى هذا تكون خصوصيات أي شعب أو قومية هي نتاج عوامل التاريخ الديناميكية في صيرورة التفاعل الاجتماعي والصراعات الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية والحروب والتفاعل الثقافي وعمليات التأثير والتأثر، وينفي أن تكون انتماء الهوية القومية ناتجة عن فطرة أو غريزة طبيعية ثابتة ولو نسبياً، وأيضاً يرى هذا الاتجاه أن معظم الخصائص التي ترتبط بقومية ما هي نسبية، وما يميز قومية في مرحلة ما لا يعني أنه سيميزها في مرحلة أخرى.

وهذا يعنى أن انتماء هوية العقل الجمعي تتكون بجدلية تاريخية، والتاريخ هو الذي يشكلها، وهي انتقال تراثي اجتماعي ثقافي معين إلى الأجيال الجديدة، أو نشوء هذه الأخيرة في إطار خلفية اجتماعية ثقافية متماثلة، والأساس الذي يدعو إلى هذه الظاهرة ويبرزها هو نشأة الأفراد في وسط اجتماعي ثقافي واحد يكشفون – رغم الاختلافات الفردية – عن سمات متماثلة، وكلما زادت وحدة هذا الوسط زادت وحدة هذه السمات، فالأوضاع والتجارب المتماثلة تميل إلى إفراز هوية متماثلة بين الأفراد والجماعات التي تتعرض لها، لهذا عندما ترتفع درجة التماثل تصبح وحدة بارزة.

وهناك تصورات ومشاعر جماعية تستقر في اللغة والأنظمة والعادات والتقاليد والقيم، هي التي تحدد هوية الشعوب، وهذا لا يعنى أنها ثابتة أو هي ترجع إلى تركيب عقلي – نفسى متأصل في طبيعة الشعب أو الأمة، ولا يعنى أيضاً أن هوية المجتمع تكون ما هي عليه، لأن ما هي عليه محتوم عليها بما هي عليه، والهوية القومية في رأي ذلك الاتجاه يمكن أن تتحدد سوسيولوجياً "بأنها من السمات العامة التي تميز شعباً أو أمة في مرحلة تاريخية معينة، لأنها نتاج جدلية المجتمع مع الظروف والملابسات المتغيرة في جميع مجالات الحياة عبر تاريخه"[41].

يستدل ذلك الاتجاه على نسبية مفهوم انتماء الهوية وعلى أنها مكتسبة من الجدلية التاريخية للمجتمع بالتغيرات المفهومية والسلوكية في فترات محددة لمجتمعات مختلفة، من خلال اختيار بعض الأحداث والظواهر التي جعلت هوية المجتمع تنتقل إلى النقيض، ومثال ذلك: التحولات السريعة الجذرية التي حدثت في بعض مراحل التاريخ ونقلت الشعوب من حالة تاريخية معينة إلى نقيضها، كما حدث بعد ظهور الإسلام، أو بعد الثورة الفرنسية، أو الثورة الروسية، أو الصينية الشيوعية، وظهور العقلانية أو الثورة العلمية.

ويستطرد الاتجاه الكسبي أطروحته برفضه التام لوجود علة أو سبب طبيعي طُبعت عليه انتماءات هوية المجتمع، فيشير إلى عدم وجود سبب وراثي حتمي بأن يكون الفرد فرنسياً، أو عربياً، فالناس ينشؤون فقط في ولاءات قومية، يتثقفون بها ويتعودون عليها، والتجربة التاريخية تدل – في رأيّ ذلك الاتجاه – على أنه من الممكن تحديد القوميات وتركيبها عن طريق تغيير أو تجديد التحديد والتركيب بمرونة، كل منطقة في أوروبا تقريبا اتحدت في وقت من الأوقات مع كل منطقة مجاورة تقريباً، ولكن بعض هذه الاتحادات فقط استمر وأثار ولاءات شعوبها، والاتحادات التي استمرت في الواقع أو في الشعور كانت تلك التي وجدت أثناء عملية التعبئة والدمج عناصر أخرى تعززها، فتقوى هذه العملية لأنها كانت تضيف إليها الذكريات السياسية، الرموز، المعاناة، الحقوق التاريخية.

في ضوء نقد فكرة استاتيكية انتماءات الهوية كعقل جمعي للمجتمع، يستشهد ذلك الاتجاه بدراسة يشيد بها في تحديد انتماء العقل الجمعي الذي يميز جنوب الولايات المتحدة ويعطيه هوية خاصة تتناقض مع الولايات الأخرى أو عقلها الجمعي، وهذا يعني أن العقل الأمريكي العام غير موجود في الجنوب، ومن الممكن بذلك خلق هويتين لشعب واحد، فالهوية القومية تعبر عن مجموعة من ميزات الشخصية وقوالبها المستقرة نسبياً والتي تُكَوِن نموذجيته إلى حد ما بين أفراد مجتمع معين.

ولا يسري ذلك على مفهوم انتماء الهوية، بل يتعداها إلى تكوين هوية العقل الجمعي في حد ذاته، فكلما تعرض للتغير فإن الانتماءات في ذاتها معرضة أيضاً للتغير، باعتبار أن الهوية حاملة للانتماء ولا يمكن فصلهما عن بعضهما، مثال ذلك: لم تحقق أمريكا في تاريخها حتى حرب الاستقلال شيئاً يذكر من حيث الثقافة والعلم، والآن هي على نقيض ما كانت عليه، ويعود ذلك إلى كون أوضاع الحياة التي كان الأمريكيون مضطرين إلى العمل فيها، حيث كانت في الماضي تعني سيادة الحكام وما كان يهمهم فقط استثمار المستعمرات الأمريكية، وتغيرت طبيعة الهوية الأمريكية بتغير الأوضاع السياسية والتاريخية، فالهويات تتغير وتنقلب إلى النقيض في ضوء التفاعل الجدلي التاريخي.

وهناك مثال آخر يسوقه أصحاب النظرة الاكتسابية لهوية العقل الجمعي من خلال منهجية المقارنة بين حاضر الهوية بماضيها البعيد، والوقوف على التناقض بين الماضي والحاضر، يدور هذا المثال حول هوية العقل الجمعي اليونانية، فيتساءل أصحاب هذا الاتجاه: أين يونان اليوم من يونان الماضي؟، فعلى الرغم من الاستمرارية البيولوجية البارزة التي تشد المجتمع اليوناني إلى أسلافه القدماء الذين قدموا للبشرية الفكر والثقافة والإبداع، فهو اليوم لا يتميز بما كان يتميز به من خلق وإبداع.

إن السبب في هذا التناقض بين يوناني القرن الثالث قبل الميلاد ويوناني القرن العشرين، "إنما يرجع إلى تاريخ اليونان المأسوي من فوضى سياسية وحروب وتفكك اجتماعي وغزو واستعباد وتحولات اقتصادية

وثقافية منذ ذلك التاريخ، ويرى ذلك الاتجاه أن عقول اليونانيين الذين حققوا ذلك العلو من الإنجاز الفكري أثناء العصر الذهبي الذي ميز اليونان الكلاسيكية، لا تختلف من حيث التركيب عن عقول اليونانيين في العصور المظلمة التي تبعت ذلك العصر، وما حدث من هبوط في الإنتاج الفكري كان نتيجة الوسط المتغير"[42].

- نقد الاتجاه الاكتسابي

جدير بالذكر أن الاتجاه الاكتسابي جعل لكل من الانتماء والهوية نمطاً فكرياً سلوكياً ناتجاً من التفاعل الاجتماعي في جميع مجالاته عبر المراحل التاريخية التي تطرأ على المجتمع بصرف النظر عن عرقية المجتمع وما تحمله من خصائص، وذلك حتى يكون هناك تبرير لحالة العقل الجمعي للهوية العربية الآنية، فما قيل عن الهوية اليونانية يمكن أن يقال عن الهوية العربية أيضاً، وتحميل الوضع الآني أو الراهن للهوية العربية على الظروف والملابسات والتحديات التاريخية.

تتلخص تلك النظرة في أن هوية العقل الجمعي وانتماءاته تتكون من التفاعلية الديناميكية للمجتمع عبر تاريخه، من خلال استجابات المجتمع للمثيرات أو التحديات التي تطرأ عليه عَبْر التاريخ الخاص به، وبهذا يرى أن الهوية ما هي إلا انعكاس الجدلية التاريخية للمجتمع في جميع المجالات الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الثقافية، العلمية، فتتبلور الهوية في الوعيّ المعرفي بالذات وبالآخر، هذا الوعيّ هو نتاج الجدلية التاريخية.

وبناء على هذا فإن هوية العقل الجمعي وانتماءاته متغيرة، يمكن أن تنقلب إلى النقيض تبعاً للديالكتية التاريخية، وبذلك ينفي هذا الاتجاه فكرة خصائص الهوية وانتماءاتها الكامنة في الجانب العرقي للمجتمع، وتلك النظرة لم تستطع تقديم تفسيرات منطقية وعلمية لتماثل أنماط الفكر عبر تاريخ المجتمع الطويل في ضوء اختلاف الظروف التاريخية للمجتمع نفسه.

2- الغريزة الطبعية الوراثية

يشير الاتجاه الطبعي الوراثي إلى طبعية المصادر، ذلك لأن الغريزة هي سلوك نمطي لدى جميع أفراد النوع من الكائنات الحية، بحيث لا تكاد تكون هناك فروق فردية بين أفراد ذلك النوع فيما يبدونه من سلوك غريزي، والغريزة قد تظهر في اللحظات الأولى من حياة الأفراد.

أ- المستوى الفردي

ويرى هذا الاتجاه أن الإنسان مدني بطبعه، لذا فإن الانتماء إلى المجتمع غريزة في الإنسان، وهذا ما ذهب إليه كارل يونج (ت 1961م) من وجود لاشعور جمعي ترسبت به الخبرات عبر ملايين السنين في الجبلة البشرية، "فالمرء يحمل في جنباته خبرات الجنس البشرى بأسره، كما يحمل أيضاً المراحل التطورية التي سبقت بزوغ الجنس البشرى إلى الوجود، ومن هنا فالإنسان يشارك العديد من الكائنات الحية في غريزة الانتماء أو القطيعة، وإن كان الانتماء لديه يتلبس بصيغ أكثر تطوراً ورقياً عن الانتماء القطيعي لدى الأنواع الأخرى من الكائنات الحية التي تقل عن مرتبته في التطور"[43].

وبهذا يكون تفسير غريزة الانتماء باللاشعور الجمعي الذي قال به كارل يونج وسان توخ راجعاً إلى أصل طبيعة الإنسان من حيث هو أصل كتلي قطيعي وليس أصلاً فردياً، "وهذه الغريزة تؤدي إلى التنازل عن حرية التفكير وحرية العاطفة وحرية الإرادة، والتلبس بفكر وعاطفة وإرادة من يشعر بالانتماء إليه سواء أكان شخصاً أم جماعة أم مبدأً أم شعاراً، وبذلك من الممكن تصور درجات من الانتماء تنتهي في نهاية التسلسل إلى حالة الانتماء المطلق"[44].

وإن كان هناك تبايناً في نوعيات الانتماء فإنها تعبر جميعاً عن غريزة واحدة هي غريزة الانتماء، وتلك الغريزة في حالة بحث دائم عن موضوع أو موضوعات تنصب فيها وتتجسد، وإن كانت تلك الغريزة بداخل الفرد الحامل لها ولا تنفصل عنه إلا أن موضوعها دائماً ما يكون خارج الذات، حقيقة ليس مطلقاً لوجود الانتماء للذات ولكن أغلب تلك الموضوعات هي خارج الذات.

ب- المستوى الجمعي

وطالما أن المجتمعات والأمم مكونة من أفراد، فينطبق عليها بالضرورة ما ينطبق على الأفراد، ويمكن القول بذلك أن هوية المجتمع ككل من حيث الانتماء والذات غريزية، فتذهب تلك النظرة إلى أن هوية الأمم والشعوب والثقافات المختلفة إنما تتحد بجوهر أو تركيب نفسي عقلي ثابت نسبياً، يَكْمُن في طبيعة وخصائص الأصل العرقي وما يتسم به من خصائص متماثلة خلال تاريخ المجتمع، اتخذ هذا الاتجاه المنهجية نفسها التي اتخذتها النظرة الاكتسابية لمحاولة إثبات صحة الرأيّ، وهي منهجية الاستقراء التاريخي والملاحظة العلمية، انطلق الاتجاه الطبعي من خلال المعطيات التاريخية الماضية وصلتها بالحاضر وإيجاد الخصائص المتشابهة والمتماثلة للهوية وانتماءاتها في ضوء اختلاف الظروف التاريخية في المجالات المتعددة.

ويشير هذا الاتجاه إلى أن علم الأنثروبولوجيا – علم الأجناس البشرية – الذي يدرس المجتمعات البدائية قد أثبت فكرة طبيعة هوية العقل الجمعي وثباتها النسبي من خلال دراسته للمجتمعات البدائية في العصر

الحديث، فإن تلك الهويات على الرغم من علمها ومعرفتها بالحضارات والأفكار والثقافات الأخرى إلا أنها لم تتغير منذ نشأتها التي ترجع إلى عدة عقود أو آلاف السنين، مرت عليها متغيرات كثيرة عَبْر تاريخها، اجتماعية وسياسية واقتصادية، استقرار سياسي في بعض الفترات، اضطرابات داخلية في فترات أخرى وأيضاً صراعات خارجية، كل هذه المتغيرات عبارة عن جدلية تاريخية، وإن كانت قد أثرت تأثيراً طفيفا إلا أن السمات والخصائص العامة وأنماط تفكير العقل الجمعي لتلك المجتمعات لم تتغير واتصفت بالثبات النسبي.

يرجع السبب في ذلك إلى الأصل العرقي وأيضاً العادات والتقاليد التي ساعدت على انغلاق العرق على نفسه، نتج عن ذلك التماثل الكبير في أنماط تفكير المجتمع بين ماضيه الطويل وحاضره، التماثل الذي يذهب إلى حد التطابق بين الماضي والحاضر في السلوكيات والثقافة والعادات والتقاليد، الأمر الذي يجعل تحول تلك الهويات إلى النقيض أمراً مشكوكاً فيه، وهذا ما يجعل لتلك المجتمعات خصائص ثابتة، كل هوية تختلف وتتميز عن الهوية الأخرى بمميزات وخصائص وسمات تفصلها عن الأخرى، فهناك عوامل طبيعية تعطي الهوية خصوصيتها.

ولكن هذا الاتجاه لا يجعل الأمر حتمياً من منطلق أن كل شيء ينطوي في أعماق داخله على جوهر يمثل صميم هذا الشيء ويحدده، ولكن يُرجع طبائع الهويات المختلفة إلى سمات وخصائص متماثلة بين الماضي والحاضر في التركيب (العقلي – النفسي) ذاته منذ أزمان بعيدة في المجتمع، وكأنها تماثل في وحدتها وحدة الكائن الحيُ، ساعد على تلك النظرة الاكتشافات البيولوجية الحديثة، مثل اكتشافات عمل الجينات والشفرة الوراثية وأثرها على أنماط التفكير والسلوك، إن تلك الاكتشافات العلمية وإن كانت في بدايات مراحلها إلا أنها تؤيد النظرة الطبعية الوراثية لهوية العقل الجمعي وانتماءاته للمجتمع.

وعلم الوراثة يبحث في أسباب الشبه والاختلاف في صفات الذين تربطهم صلة القربى بغض النظر عن كون هذه الصفات هي صفات شبيهة بالآباء والأجداد أم متغايرة، لأن مفهوم التغير يعني تلك الفروق الناشئة عن العوامل الوراثية (المجموعة الكروموسومية)، فالجانب الوراثي مقرر في الشفرة الوراثية المتضمنة في جزئ DNA، "والوراثة لا تشمل الشكل فقط بل تشمل السلوك، إذ أن تلك الصفات تتوارث من جيل إلى آخر بفعل انتقال الجينات"[45].

نتج عن تلك الاكتشافات العلمية في مجال البيولوجيا ظهور علم النفس البيولوجي (السيكوبيولوجي) كمحاولة لإثبات العلاقة بين علم النفس وعلم البيولوجيا، أي دراسة الفرد باعتباره كلاً متكاملاً لا يمكن اختزاله إلى بعد بيولوجي أو بعد سيكولوجي، كما ظهر في السبعينيات من القرن العشرين علم جديد هو علم البيولوجيا الاجتماعية أو علم (السسيوبيولوجي) Sociobiology من خلال الكتاب الشهير "البيولوجيا الاجتماعية: التركيب الجديد" الذي وضعه ويلسون Wilson عام 1975م، والذي يرى فيه أن هناك أساساً بيولوجياً لكل

أنواع السلوك الاجتماعي، ويحاول هذا العلم أن يجد تفسيراً بيولوجياً للمظاهر الحضارية المختلفة من انتماءات واعتقادات دينية وأخلاقية وأنماط للتفكير وسلوكيات اجتماعية، فجميع الأنشطة وتفاصيل التنظيمات الاجتماعية لها أساس بيولوجي منطلقة من الجينات الوراثية.

ومن خلال النظرة البيولوجية الوراثية يفسر أصحابها اختلاف هويات المجتمعات، سواء أكان هذا الاختلاف في مستوى التنوع أم في مستوى درجة الحضارة، فلكل هوية نمط وأسلوب للفكر والحياة والعادات والتقاليد وقدرة على الإنتاج واهتمامات تختلف عن الهوية الأخرى، وعلى قدر اتجاه اهتمامات الهوية ورقيّ نمط تفكيرها يكون مستوى حضارتها وعلمها مقارنة بالأخرى، وكل هذا لا يأتي من فراغ يسبقه بل تتوارثه الأجيال، جيل بعد جيل عبر تاريخ الهوية، وهذا الإرث يمكن تفسيره بالوراثة البيولوجية والتي تجعل للهوية نمطا متشابها نسبيا عبر تاريخها.

3- جدلية البيئة الاكتسابية والغريزية

لقد اختلفت مصادر تشكيل الانتماء والهوية الحاملة للانتماء سواء أكانت هوية فردية أم جماعية، ويرجع هذا الاختلاف إلى مصدرين، الأول رأى أن ذلك راجع إلى البيئة الاكتسابية من خلال الجدلية التاريخية للمجتمع، والثاني رأى أن الأمر يكمن في الطبعية الوراثية الجينية.

إن كل اتجاه قد اختلف مع الآخر، واستخدم المنهج الاستقرائي التاريخي تارة والعلمي تارة أخرى لإثبات صحة رأيه ونفي الرأيّ الآخر، وعلى الرغم من تساوى قوة الأدلة الاستقرائية العلمية لديهما، إلا أن أصحاب الهوية الأكثر تطوراً يميلون إلى النظرة البيولوجية، وأصحاب الهوية الأقل تطوراً يميلون ويتمسكون بالنظرة الاكتسابية لتبرير موقفهم.

وعلى الرغم من ذلك إلا أنه يمكن الجمع بينهما لتساوى الأدلة العلمية، ويمكن إقامة صلة بينهما، لأن الغريزة عبارة عن جماع لمكتسبات تراكمية وتفاعلية، فالغريزة التي ينظر إليها باعتبارها شكلاً سلوكياً يتبدى لدى أفراد النوع، قد تبلورت لدى الفرد بواسطة عمليات جدلية تفاعلية من البيئة، فالشعور بالانتماء إن كان غريزياً إلا أنه يتبدل ويتغير ويرتفع مستواه ويهبط تبعاً لجدلية الاكتساب في المجتمع، وكذلك الأمر بالنسبة لأنماط تفكير الهوية الحاملة للانتماء.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك إرهاصات قديمة أشارت إلى الصلة بين العاملين الوراثي والبيئي، قال أرسطو (ت 322 ق.م): "إن الذين ينحدرون من أصول أفضل يرجح أن يكونوا رجالاً أفضل، ويلاحظ هنا أن أرسطو لم يجعل الأمر حتمياً – بالمعنى الحديث: الحتمية البيولوجية – ولكن جعله في معيار الترجيح، وكذلك جالينوس وأبقراط حيث أشارا كلاهما إلى أثر التركيب الجسمي على المزاج والسلوك وأنماط

التفكير"[46]، تلك الإرهاصات أثرت على التيار الجامع بين البيئة والوراثة بجانب تطور علم البيولوجيا الذي أكد على أهمية العوامل الوراثية في تشكيل السلوك وأسلوب التفكير.

ولتوضيح مسألة التفاعل الجدلي بين الوراثة والسلوك يمكن الاستناد إلى ثلاثة مبادئ، الأول: النتائج العلمية الحديثة التي توصل إليها علم الوراثة والبيولوجيا بصدد تأثير الوراثة على السلوك الإنساني، والثاني: مبدأ تعدد العلل أو الأسباب للظواهر وعلى الأخص العلوم الإنسانية، والذي يُعَبر عن حدوث الظاهرة في ضوء عدة أسباب ولا يرجعها إلى مبدأ واحد بعينه، لأن مبدأ العامل الأوحد للظاهرة قد أثبت عدم جدواه في المناهج العلمية الحديثة، فالظاهرة الإنسانية تتكون من خلال عدة عوامل متفرقة أحياناً ومجتمعة أحياناً أخرى، ويكون هناك عامل أكثر تأثيراً ولا يعني ذلك نفي العوامل الأخرى، والانتقاد الموجه إلى الاتجاهين هو أن أصحاب الاتجاه الكسبي قد انطلقوا من خلال فرضية العامل الأوحد وهي الجدل التاريخي أو الظروف البيئية الاجتماعية، وأصحاب الاتجاه الطبعي البيولوجي انطلقوا من فرضية الطبع الوراثي البيولوجي.

أما المبدأ الثالث فيتبلور في مفهومي التناقض والتضاد، والتناقض يعني الشيء ونفيه في الوقت نفسه، كما نقول: أن الشيء موجود وغير موجود في اللحظة ذاتها أو في الوقت نفسه، وهذا محال فلا يمكن أن يجتمع الشيء ونقيضه في آن واحد، أما التضاد فهو يعني أن هناك شيئين كل منهما مختلف عن الآخر، ويمكن جمعهما كما نقول: "أبيض" وضده "أسود"، حيث يؤدي الجمع بينهما إلى شيء ثالث ليس هو الأول وحده وأيضاً ليس هو الثاني وحده، ولكنه مُركب ثالث جوهره مزيج من الأول والثاني، ولهذا المزيج خصائص وصفات ناتجة عن جمع الاثنين.

وعند النظر إلى الهوية الفردية الشخصية من خلال ذلك نجد مسألة جمع الأضداد كامنة في الإنسان، فهو جامع للغرائز المادية المطبوع عليها والجينات الوراثية التي بدورها مؤثرة في السلوك الإنساني والجانب الثقافي المتبلور في نمط التفكير، لأن السلوك ناتج في أساسه عن العملية الفكرية وهو انعكاس لها، ومن المحال تصور الفكر دون ذات مادية مُحملة بالغرائز والرغبات والدوافع، فالثقافة لا يمكن تصورها دون موضوع، لأنها في حقيقة أمرها محمول لموضوع وهي انعكاس له.

كل اتجاه من الاتجاهين الكسبي البيئي والطبعي الوراثي قد نظر إلى الآخر من خلال مفهوم التناقض وليس التضاد، فكل نظرة اعتبرت الأخرى نقيضاً لها، بحيث إن تقرر عامل الكسب أو البيئة أدى ذلك إلى نفي عامل الطبع والوراثة والعكس، ولم ينظر كل اتجاه للآخر من خلال مفهوم التضاد المؤدي إلى جمعهما معاً.

ومن أهم العوامل التي جعلت كل اتجاه ينظر إلى الآخر نظرة تناقضية هو أن الهويات الأقل حضارة قد تمسكت بالنظرة الكسبية البيئية رافضة النظرة الوراثية حتى لا تشعر بأنها ذات سمات عرقية أدنى من

السمات العرقية للهويات الأكثر تطوراً وحضارة، والهويات الأكثر تقدماً قد تمسكت بالنظرة الوراثية نتيجة لما أثبتته النظرية العلمية وكذلك الواقع وأيضاً الشعور بالتفوق العرقي.

وفي النظر إلى منطلقات الاتجاه البيئي الاكتسابي تتضح نظرته النقيضية للاتجاه الوراثي، فهو ينطلق من تقسيم الهوية إلى مفهومين: وراثي طبعي والآخر اجتماعي بيئي، وكل منهما يقف موقف النقيض من الآخر، فيشير إلى خطأ المفهوم الطبعي الذي يحدد شخصية الأمم والشعوب وانتماءاتها بجوهر أو تركيب نفسي عقلي ثابت ينطلق منه بصرف النظر عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والفكرية المحيطة به، ويرى الاتجاه البيئي أن "الاتجاه الطبعي قد فصل الجوهر عن الوقائع والتحولات الخارجية وأهمل أثر الأوضاع التاريخية، وهذا لا يجعل التركيب أو الجوهر خاضعاً للتغيير والتعديل"[47].

يتضح من تلك الرؤية أنها تنفي نفياً قاطعاً وجود الطبع الوراثي في مسألة الهوية وانتماءاتها، ووضعها كنقيض لرؤيتها الاكتسابية، ومنطلق آخر تعتمد عليه تلك النظرة وهو منطلق التحولات الجذرية التي تحدث في بعض مراحل التاريخ، فتنتقل الشعوب من حالة تاريخية معينة إلى نقيضها، واستدلت على ذلك بما حدث بعد الثورة الفرنسية والروسية والصينية الشيوعية، وجعلت محور أو علة تلك التحولات هو العامل السياسي، إن كانت تلك الأمثلة التحولية في تاريخ الشعوب لا يمكن إنكارها أو إنكار درجة التحول عندها، إلا أن ذلك لا ينفي وجود العامل الوراثي، فإن كانت تقرر التحولات الاكتسابية للشعوب أو الهويات إلا أنها لا تقرر سلب أو نفي وجود العامل الوراثي الجيني الطبعي.

من جانب آخر أهمل هذا الاتجاه في استشهاده بتلك التحولات جانب مهم ألا وهو التحول الاكتسابي للبشرية ككل، فإن تلك التحولات كانت في سياق أعم وأشمل وهو السياق التحولي للبشرية عبر تاريخها، فمن الطبيعي أن تكون تلك التحولات مستغرقة داخل تحول أشمل مع الحفاظ بالسمات والخصائص العامة للهوية الجزئية، والذي يميز هوية عن غيرها هو الجانب الطبعي الذي هو أيضاً في حالة ثبوت نسبي وليس من منظور المطلق كما فهم أصحاب الاتجاه الاكتسابي.

وإن كان الاتجاه البيئي قد استشهد بمراحل التحولات للهويات القومية وانتماءاتها في التاريخ للاستدلال على التغير المطلق إلى النقيض، فلماذا لم يستشهد بالهويات التي تميزت بالثبات النسبي عبر قرون طويلة على الرغم من تعرضها ومعرفتها بالأيديولوجيات المختلفة؟، مثل الهويات الأفريقية المنغلقة وهويات الجماعات من السكان الأصليين في أستراليا والجماعات من البوشمان في إفريقيا والفوبجيين في أمريكا الجنوبية، لماذا أهمل ذلك الاتجاه تلك الهويات في استقرائه التاريخي؟، لم تتحول تلك الهويات إلى النقيض عبر تاريخها الطويل

على الرغم من تعرضها إلى صراعات وتفاعلات داخلية وخارجية، ولكن لا يعني ذلك نفي الاتجاه البيئي بل يعنى نقد النظرة النقيضية تجاه الرؤية الطبعية.

إن فكرة الهوية السرمدية المطلقة وانتماءاتها الواقفة خارج الزمان والمكان دون تعدد مكاني أو تفاعلات تاريخية كمنطلق استاتيكي مطلق، هي فكرة تأملية ميتافيزيقية متناقضة مع الواقع وتغيراته ومع المشاهدات التاريخية، ولا تعني النظرة الطبعية الوراثية ذلك المفهوم السرمدي، بل تعني تماثل أنماط السلوكيات والأفكار والثقافة للهوية الواحدة في ضوء تاريخ الهوية نفسها بين الماضي والحاضر على الرغم من التحولات والتفاعلات التاريخية، وهذا التماثل هو الذي يميز الهوية عن الأخرى وهي نظرة تتسم بالتماثل أو الوحدة النسبية، ولا يعنى هذا نفي النظرة البيئية الاجتماعية التاريخية.

لا نستطيع إنكار التحولات الكبرى للهويات القومية وانتماءاتها لأن الاستقراء التاريخي يُثبتها، وأيضاً لا يمكن إنكار تماثل أنماط الفكر والسلوك والجانب المادي المتمثل في الأشكال الجسمية للهوية الواحدة، لأن في إنكار ذلك هو في حقيقة أمره إنكار للعلوم الطبيعية البيولوجية، وعلى الأخص علم الجينات، ومن منطلق أن مفهوم البيئة ومفهوم الطبع يمكن اعتبارهما متضادين غير متناقضين فيمكن الجمع بينهما وعدم نفي أحدهما بتقرير الآخر، وينتج عن ذلك مفهوم آخر يقوم على تقرير المفهومين ووحدتيهما في مفهوم واحد.

بناء على ذلك يمكن القول بأن الهوية وانتماءاتها نسبية متغيرة متأثرة بالتفاعل التاريخي المتمثل في الصراعات والتحديات الداخلية والخارجية، تلك العوامل في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، قد يحدث عبر تاريخ الهوية تحديات تنقلها إلى الضد تبعاً لقوة الظروف، وقد تكون التحديات ضعيفة كما هو الحال في المجتمعات والهويات المنغلقة على نفسها، وأيضاً الاستجابة قد تكون التحديات قوية والاستجابة ضعيفة لا تماثل التحدي في القوة كما هو الحال في هوية العقل الجمعي العربي، وقد تكون التحديات ضعيفة والاستجابة قوية كما في الهويات ذات الحضارة المتقدمة، فليس بالضرورة أن تكون الاستجابة بقدر مستوى قوة التحدي، ولهذا تتسم التحولات سواء أكانت كبيرة أم طفيفة بتماثل نمطي طبعي إلى حد ما بين ماضي الهوية وحاضرها ويميزها ذلك التماثل عن الهويات الأخرى.

نتائج البحث

ومما سبق يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أولاً: لقد أتت الآراء المختلفة بصدد مفاهيم الانتماء والولاء والهوية تبعاً للاتجاهات والأهداف التي اتجهت إليها مسارات الولاء والانتماء ، وعلى الرغم من تلك الاختلافات إلا أنها تضمنت الدلالة نفسها، والتي تعني الانتساب والقرب والموالاة والنصرة.

ثانياً: اختلفت التيارات في استخدام دلالتي الانتماء والولاء، فالأولى تعني الانتساب العرقي المرتبك بالمدلول المكاني، والثانية ترتبط بالمشاعر والعواطف الروحية، وتيار ثالث يجمع بينهما من حيث أن الانتماء يتضمن الولاء، ويستعمل الانتماء معنى الولاء تبعاً لسياق الموضوع.

ثالثاً: إن الصلة بين الانتماء والهوية تُعبر عن علاقة تضامن في ظل السياق المنطقي، باعتبار أن الانتماء يُعد محمولاً والهوية موضوعاً، فالانتماء محمول الهوية حيث يتجه المحمول إلى موضوعات مختلفة كالعرق والمكان بالنسبة للمنظور المادي، وإلى العقائد والثقافة والفكر بالنسبة للمنظور التجريدي.

رابعاً: تتبلور هوية المجتمع وانتماءاته من خلال التفاعل الجدلي بين الوراثة والبيئة، وسلوكها يتحدد وفقاً لعاملي الوراثة والبيئة، فالعوامل البيئية تمد الهوية بالمثيرات التي تجعل الإمكانات الوراثية تستجيب لهذه المثيرات بطريقة ثابتة نسبياً، ذلك لأن العوامل البيئية على اختلاف أنواعها، الطبيعية والاجتماعية والتاريخية، لا تخرج عن كونها مثيرات متعددة تؤثر في العوامل الوراثية محدثة مجموعة من الاستجابات التي تمثل الصفات العامة للهوية، وهذا يسمى بجدلية التفاعل بين الوراثة والبيئة. وهذه الجدلية تعطي هوية العقل الجمعي نمطها الفكري المؤثر على سلوكها الذي يجعلها ذات سمات وخصائص تميزها عن الهويات الأخرى.

خامساً: يمكن النظر إلى هوية العقل الجمعي وانتماءاته من خلال طبيعتها ككائن حيّ، لها دلالة وجودية تتفاعل وتؤثر وتتأثر، وتتنازع مع ذاتها ومع الآخر أيضاً، تنمو وتنضج، ذات طبيعة خاصة نسبية إلى حد ما تميزها عن الأخرى، كما أن لها دلالة نفسية باعتبارها كائناً حياً، تمر بمراحل نفسية عديدة خلال نموها وحياتها، تحدث لها أزمات نفسية في حالات الصراع مع الذات والآخر، تستخدم ميكانيزمات الدفاع النفسية لمواجهة الشعور بالإحباط في حالات الأزمات كالتبرير والإسقاط بصرف النظر عن عوامل الفشل، كذلك لها دلالة اجتماعية وثقافية تتعامل وتتفاعل مع الذات والآخر، لها أنماط من السلوك والفكر والثقافة، لها ماض وحاضر ومستقبل، تحتوي التغير والصيرورة والتماثل والتقابل، وكذلك الصراع والنزاع، وبالتالي تتغير نسبياً مستويات انتماءاتها تجاه الموضوعات المختلفة

هوامش البحث.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، 1947م، ج4، ص 215.

(2) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، لبنان، 1986م، مادة: نمى، ص 738.

(3) سيجموند فرويد، علم نفس الجماهير، ترجمة جورج طرابيشي، دار صادر، بيروت، 1980م، ص 28.

(4) يوسف ميخائيل أسعد، الانتماء وتكامل الشخصية، ص 8.

(5) د. محمد عبد الغنى حسن، الولاء والانتماء: الانتماء والهوية والمواطنة، مركز تطوير الأداء، القاهرة، 2012، ص 12.

(6) سيجموند فرويد، علم نفس الجماهير، ص 30.

(7) يوسف ميخائيل، الانتماء وتكامل الشخصية، مكتبة غريب، القاهرة، 1992م، ص 56.

(8) المرجع السابق، ص 75.

(9) د. خيرى فرجاني، الانتماء الوطني، مركز الدراسات والبحوث، القاهرة، 2011م، ص 73.

(10) د. محمد عبد الغني حسن، الولاء والانتماء، ص 23.

(11) د. عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، دار عويدات، بيروت، 2007م، ص 30.

(12) ولترستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، دار الثقافة، القاهرة، 2004، ص 36.

(13) للمزيد عن هيباتيا:

- Mueller, Women of Mathematics, New york, Green Wood Press, 1987.

وأيضا:

- Edward Jay Watts, City and School in Late Antique Athens and Alexandria, University of Calitrnia Press, 2006, P.P. 197-198.

وكذلك: د. منة الله عمرو، هيباتيا، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2018.

(14) د. أشرف حافظ، معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، دار طيبة، القاهرة، 2004م، ص 71.

(15) آتين جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح، القاهرة، 1990، ص 63.

وللمزيد: د. حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، القاهرة، 1969م، ص 163.

(16) د. محمد على أبو ريان، أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي، ط2، دار الطلبة، بيروت، 1969م، ص 73.

وأيضا: السهروردي، هياكل النور، تحقيق وتعليق: د. محمد على أبو ريان، مكتبة السعادة، القاهرة، 1957م.

(17) د. محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1980م، ص 198.

للمزيد: ابن رشد، فصل المقال، تحقيق: د. محمد عمارة، القاهرة، 1972م.

(18) د. الطيب الحميدي، الوجيز في تاريخ الفلسفة، دار حامد، تونس، 2001م، ص 62، 63.

(19) د. أشرف حافظ، الرأسمالية وأزمة الفكر العربي، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2010م، ص 186.

(20) أفلاطون، الجمهورية، ترجمة حنا خباز، بيروت، 1969م.

(21) Joon Robinson, Economic Philosophy, New york, 1964, p. 126.

(22) Karl Marx and Englis, The communist Manifesto, New York, 1965, p. 45.

(23) Alex callinicos, Trotskyism concepts in social thought, university of Minnesota press, 1990, p.p. 201, 203.

(24) د. أشرف حافظ، ملامح فلسفة القانون، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2020م، ص 88.

(25) د. أبو بكر مرسى، أزمة الهوية في المراهقة، القاهرة، 2002م، ص 52.

(26) سيجموند فرويد، الكف والعرض والقلق، ط5، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، القاهرة، 1982م، ص 42.

(27) للمزيد: د. مصطفي فهمى، علم النفس الكلينيكي، القاهرة، 1967م، ص 176 وما بعدها، د. كمال الدسوقي، علم النفس ودراسة التوافق، الزقازيق، 1985م.

(28) د. أبو بكر مرسى، أزمة الهوية، ص 53.

(29) للمزيد:

Erikson, E, Identity: Youth and Crisis. New York, 1950, p. 38-50.

(30) Erikson, E.H. On the sense of inner identity. New York, 1953, p. 124.

(31) Ipd. P. 69-72.

(32) د. أبو بكر مرسى، أزمة الهوية، ص 64.

(33) هنري وماير، ثلاث نظريات في نمو الطفل، ص 96 وما بعدها.

(34) المرجع السابق، ص 164–165.

(35) المرجع السابق ، ص 168.

(36) د. حسن عبد الرازق منصور، الانتماء والاغتراب، مؤسسة الوارق، القاهرة، 2014م، ص 182.

(37) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2014، ص 121.

(38) د. مصطفي حدية، التنشئة الاجتماعية والهوية، كلية الآداب، الرباط، 1996م، ص 68.

(39) د. محمد عبد الغنى حسن، الولاء والانتماء، ص 150.

(40) المرجع السابق ، ص 156.

(41) د. أشرف حافظ، الهوية العربية والصراع مع الذات، دار كنوز المعرفة، الأردن، 2012م، ص 68.

(42) د. نديم البيطار، حدود الهوية القومية، ط2، بيروت، 2002م، ص 20.

(43) كارل جوستاف يونج، علم النفس التحليلي، ترجمة نهاد خياطة، دار الحوار، سورية، 1997م، ص 163.

(44) يوسف ميخائيل، الانتماء وتكامل الشخصية، ص 15.

(45) ستيفن روز وآخرون، علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 148، الكويت 1990م، ص 18.

– وللمزيد:

– سيجموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ترجمة: أحمد عزت راجح، القاهرة، 1966م، ص 53.

– د. أحمد عبد الخالق، أصول الصحة النفسية، القاهرة، 1993م، د. عبد السلام عبد الغفار، مقدمة في الصحة النفسية، القاهرة، 1990م.

(46) د. أشرف حافظ، الهوية العربية، ص 201.

(47) د. نديم البيطار، حدود الهوية، ص 18.